قصة مصرية

الاوركستر

كانت الحانة ضئيلة الانوار وقد رقت فيها انفاس الليل حتى لكأن الذين اجتمعوا حول موائد الشرب كلما طال ليلهم ازداد استمتاعهم . الليل والخمر ولذة السهر بعثت في جو الحانة حياةً ونشاطاً فاشتبهت في لجة الحركة والسكون ضحكة واضحة اشرق بها ثغر حسناء من بنات الهوى

حانة صغيرة ولكن انيقة كأنها لحسن ترتيبها وجدتها صورة في لوحة . لا تكاد تبلغها ضوضاء الطريق لانعزالها في حي هادىء من احياء الافرنج

في تلك الليلة اجتمع حول احدى الموائد في ركن الحانة ثلاثة اشخاص لا يكاد يتبينهم الناظر حتى يحكم بانهم اغرقوا الشباب الغض في لجة الحياة الدنيا غرق الزهر في الآنية . واعربت سماتهم عن حقبة من العمر يظل فيها المرء اسير اهوائه

وقد وفقت بينهم حياة السهر الى حد ان غاب تباين ملامحهم الطبيعي تحت ظلال من التناسب العجيب بين صورهم . وغالباً ما تستوي الصور والطباع في الناس فلا يكاد يفترق الكثير عن الكثير الا في القليل . وكان الاصدقاء الثلاثة يستوون في اشياء كثيرة ، في طباعهم وحديثهم وازيائهم ، وغير هذه الاعجوبة في شأنهم ان كلاً منهم كان يأخذ بسبيل من الحياة البوهيمية يزيد في اتحاده برفيقيه كانوار الثريا

ولقد تذكر لفظة « البوهيمية » اقتساراً في هذا الحديث فلا يكون المراد منها ذلك الشذوذ المحتمل الذي يعتري حياة رجل غلبت مواهبه طباعه . فانحرف عن سبيل الناس وحاد عن المألوف في الكثير من معاملاته واساليبه . انما الغرض من البوهيمية في معنى الحياة المصرية تلك الصفات الملحوظة في بعض الوطنيين الذين وفقوا لمزاولة ما نسميه بالفنون الجميلة . فلا تراهم في اليقظة اقل استغراقاً وفتوراً منهم في حالة العكوف على اداء الفن . وحتى ليخيل ان ذلك الاستغراق سحب غيمة قد شفت عنها الفنون نفسها واتخذت من اصواتهم واحاديثهم صورة خاصة ونغمة مؤثرة توحي بان بؤس الحرفة قد اقترن بوجدهم بها

وكان علوي افندي — اكبر الثلاثة سناً — قد اجاد الضرب على العود وقدر له ان يكون حليف سهرات وملاهٍ يحفظ المعهود والمستجد من الاغاني وينشدو بها ويرقصها وقد

افنى الليل الشطر الثاني من عمره فامسى كالشبح الناحل. وكأن صوته الجميل نفس متأرج يتصاعد ببطء من عود جاف . كانت براعتهُ في فنهِ مثلاً لما تبلغهُ الايام من اختيار الحظ السيء الذي لا يبيح السرور ساعة الا لكي يقضى بالنكد ساعات . وكأن تلك البراعة ضرب من الحيف على حظ الانسان في حياته

وكان من تمادي الايام في سخريتها ان الصناعة نفسها التي كانت ترفع صاحبها الى مكان الملك قد اختلف حظها في زماننا حتى ازوت في اركان الحانات واتخذت من آذان العامة والسكارى ميزاناً للتقدير والاعجاب. فقُضي ان ينزوي ذلك المغني البارع في ركن حانة صغيرة لا يزال يرسل في جوها اغانية كأنها ابتهالات الى السماء ، ان تعينهُ على الحرفة والا تجعل نصيب الفن الجميل الصبر الجميل

وكانت الخطيئة الكبرى في حياة هذا الفنان — خطيئة الحظ — انهُ لما بلغ الغاية في صناعتهِ كان ما سلف من ايامه كصفحة وجه الزنجي لا تني بارقة نور

ولم يكن في مادة هذه الحياة عزاء كالذي يتمثله الناس عند ما تصافح وجوههم بهرة الضحى وتموج الاشعة على المياه والقصور وعند ما تستحيل الوان الطبيعة وانقاسها الى احلام تبشر بمستقبل هنيء

كل ما اصاب علوي افندي من الحرفة اتفق لصديقه وزميله المعلم شعبان القانونجي . وكان على شاكلتهِ يستمير لنفسهِ بعض العزاء من اخلاصه لفنهِ

وكانت خمسة انتهزها المعلم شعبان حاول فيها الضرب على « القانون » وهو بعد يزاول حرفة النجارة الدقيقة . وما زال يلاين ما عسر من طرائق الفن حتى اجاده وبرع فيهِ

وبلغ الستين ولما ينسَ عهده في مصنع النجارة ولا غاب عن ذكره تلك الاصائل التي كان يجلس فيها على قوالب الخشب المنحور في جوف المصنع لكي يحفظ الضرب على الآلة معتمداً على طبعهِ وذوقهِ . وكان من ثمرة احسانه لفنه مع رقة حاله انهُ صار زميل « علوي افندي » في « الاوركستر » المتواضع الذي كان يطرب زبائن حانة « الاهرام »

اما كيف تجاوز المعلم شعبان مسافة ما بين حرفة النجارة الدقيقة وفن الضرب على القانون فانها صفحة كبنج الدجى توضح ازالها كالبرق ينفذ البرق الساري من خلال غيم ثقيل

فان ذلك الفنان لما بلغ الغاية من فنه صار لا يستطيع ان يتمثل الدنيا الا بعين خياله . عشي بصره لا من طول اختباره لطرائق الصناعة وفنونها ولكن من طول ما افنى في سبيل النجاح من راحتهِ وهناءتهِ فكان ابداعهُ في الضرب على الآلة من الخوارق

ولم يكن من الممكن ان يمضي هذان الفنانان العمر دون ان يصيبهما رشاش من ذلك الخضم المصطخب الذي يمضي الناس بالحياة الدنيا . وها وان كانت الايام قد فرغت من غدرها بهما

لكنها تخلت لها عما يشبه الهالة من ذلك الاتصال العجيب بين العواطف والانغام . وكأن الايام من بعد ان حجبت النور عن احدهما وانكرت لين الحياة عن الثاني حكمت بان فرحة النجاح في الصناعة بالنسبة لجامد لا يرى وذاهل عن الدنيا لا يعي ، لا تختلف في طبيعة الاحساس عن غفوة يترك فيها ذلك الاتصال بين النغم والعاطفة اثراً يُستَمَرُّ به قلبا هذين الفنانين

واصغر الاشياء اذا لامس منبعةً من العظمة عاد شيئاً عظيماً

أمن بعد ان يستحيل الفرع الغضي الى قتاد تسري فيه الحياة ويعود الى ريعانه ؟

في الطبيعة بعث مستمر ، فلقد يؤتى بالفرع الجاف يطعم به جذع شجرة مخضلة او يغرس في تربة مناسبة فلا يلبث ان ينبت ويصير غصناً غضيضاً

كذلك اتفق لعلوي افندي وزميله عند ما اخذ كل منهما مجلسه الى جانب السيدة « ليلى » المغنية وصاحبة حانة « الاهرام »

غير ان الهوى حين امتحن قلب « العواد » سلم بان الطبيعة الانسانية عرضة لان تعي كالشجرة التي قلّمت ولما يمُدّ اليها اخضلالها . كأن الهوى فرصة تأجلت حتى تجاوزت في عمر الفنان اوان انتهازها . واضاف الحب حين مس فؤاد القانونجي الاعشى الى قصة الالم الانساني صفحة اخرى كأنها صفحة العمر في مرآة تصوره

يالله : كيف يهتدي الحب الى سبيله من تلك القلوب التي اختارت ان تكون الدنيا بحظوظها وملاذها في مستوى اللحظات المجيدة التي تحسُّ فيها كأنها تنهل من ينبوع الخلد كلما تفجر ذكاؤها

كان علوي افندي منذ تخلى عن عمله في ادارة البريد — كان من السعاة — قد آلى على نفسه ان يبذل من حياته حتى يلين له ما عسر من طرائق الصناعة . وخلص من ولعه بالضرب على العود بادىء الامر الى الايمان بالاكذوبة الكبرى المتفق عليها ان مجد الفن محسوب على سعادة الفنان

ولكنه آثر ان تكون لذاذات الشباب فدية لآلهة الفن . وقد روي في الاساطير ان « ابولو » قتل خليله « نارسيس » وهو يداعبه

فلما تأرجت فيه نفحة الفن وصار أستاذاً في الصناعة لم يكن نصيبه من لذة الحياة النصيب الاوفى . وخلقت الايام في طبعه وعواطفه ذلك الاثر الراسخ العميق الذي يدع الانسان امام أجمل الاشياء بلا إعجاب ولا متاع . صلبَ حبُّ المجد الفنان فضيلةَ السرور

وكانت عاقبة ليالي السهر والارق الطويلة — حقبة التجارب الاولى للفن — ان درست العاطفة في الفنان لطول اعتزاله وانفراده . كان بلا اسرة . نشأ في إحدى قرى الريف . وكان أبوه اعرابيًّا من البدو . وامه فلاحة من المنصورة واجتمع في طباعه خشونة الاعرابي وعطفه الى رقة تلك الفلاحة المصرية ودعتها وخلقها الطلق

نشأ وفي فطرته الميل الى الغناء . وكان في صباه يأبى ان تفوته فرص الاستماع في حفلات الغناء فتغلغلت في نفسه ذلك الاثر البسيكولوجي الذي يغذي الآمال ويصقل الملكات

فكان لايترك الشدو او الاستماع الا لكي يحظى بأنه المغني البارع او العواد الماهر . وان صيته قد جاوز حدود وطنه . ويظل يتحسس صوته في مقطوعات واغان كأن الذي وهبه الصوت الحسن لم يخف عنه انه سيكون رب الفن في مستقبل ايامه

وتحققت امنية الفنان من بعد ان رزىء بوفاة ابيه . غير ان الارتزاق من الحرفة اذ ذاك كان كاستطلاع النور من سم الخياط . فلم يطق البقاء في القرية لما سامته التجربة الامرين

وما كان من الممكن ان يعد الفن بالنجاح في جو ذلك الريف الذي لا تطيق خشونته وشظفه الا ان يحسب الفن من ضروب العبث والفراغ

واشد مايتعوذ منه القروي ان يكفيه الله شر الفراغ

وكان من دأب «علوي» افندي اذا اجتمع بصديقيه في الحانة ان يظل معهما في حديث طويل قبل ان تأخذ السيدة «ليلى» في الغناء

يقول عن سالف ايامه في الريف روايات كالذي يؤثر عن حياة ارباب الفنون البوهيميين . يرويها بلهجة كأنها طابع صادق لآلام لم تفارقه . وغالباً ما تكون فاتحة تاريخ الفنان لوحة تقيد فيها خطوط المستقبل بخطوط الماضي . وكان يردد في حديثه دائماً ذكر المرحلة الشاقة التي كانت تفصل بين شاب ريفي من سعاة البريد بلا سند في الحياة والمغني المحترف المتفوق

ويدعي علوي افندي في اثناء حديثه انه متغلب على طبعه الذي استحوذ عليه السأم والذهول . ويحاول جهده ان يحاكي الذين افرغت الخمر نشاطهم في قوالب من الحديث الفكه الممتع . وكان يتحدث عن معلمه الشيخ الذي تلقى عنه صناعة الضرب على العود . وعن ليالي اللهو التي كانا يقيمانها في الاسواق والمواسم . ويطلق النفس وتتشدق بالمديح ولما تكتمل اداة الفن . وكان يتحدث عن الفن كمن جنى على نفسه

ولا يحاول القانونجي الاعشى ان يبث شكايته الى احد كأنه قد رضي ان يحتسي همومه وهموم غيره في صمت . وهو اذا تصفح ما مضى من زمانه ذكر نفسه وهو فتى في نواحي القرى وسبتة تحت الاشجار شريداً بلا مأوى . واذ وفق الى حرفة النجارة الدقيقة فزاولها حيناً وأجادها وتفنن فيها وكان ربما عهد اليه المغنون بأعوادهم يصلحها ويجبر كسرها . فلما اراد ان يستبدل النجارة بالضرب على «القانون» كان جزاء احسانه ان صنعته الطبيعة الظل بدل النور عشى بصره ولكنه بقي يضرب على الآلة وكأن التواقيع اشعة تسطع في صدره

واغمض الليل اهدابه على الحانة التي تضاحكت فيها الاضواء والكؤوس والانغام . وكانت الاصوات في داخلها كالفرحة يحتضنها القلب الحزين . وجعلت المغنية تشدو بالدور القديم :

يا ليل طل او لا تطل   لا بدّ لي من سهرك

وكانت نبرات صوتها سيالاً عبقريًا مستمداً من دقات القلوب . وكأن الانغام لجة تتبدد وتجتمع تحت انامل القانونجي . وحنّ صدر العود حتى امتزج فيه الصوت والعزف كما يكون الاتصال في الطبيعة بين الاغاريد والاشعة

وبقي «علوي» افندي كمن غيبته امواج الموسيقى . اما القانونجي الاعشى فكانت عيناه المضمومتان في اتجاه الى الامام كمن يحاول ان يتبين شيئاً لا يراه. وتوسطهما المغنية الفرعاء. قطعة من الحسن الباهر غضيضة العود كالزهرة في نيسان

وكانت تنظر الى المعجبين بها مبتسمة في زهو كأنما تلوح لها صورتها في مرآة

والحانة الانيقة بحيطانها المدهونة واضوائها الملونة وبابها الزجاجي كمبد لربّة اللذة

ويظل القلب بلا استعداد للحب الى ان يبلغ الخيال بهذه العاطفة درجة التبلور. فتكون اشبه بالتموجات الصوتية التي تحدثها الموسيقى . وللآلة الموسيقية مثل اوتار القلب ودقاته ومقاييسه ولكنها بلا حياة ولا ارادة

ولم تكن الجوقة كياناً على حدة مستقلاً عن الحانة. فان اهواء الانسان من دأبها ان تستخلص السرور من مادة مشتركة كما يستخلص النحل رحيقه من النسيم ومعيصه اليانع . فهي تأبى الا ان يكون الغناء مع الخمر والزهر معاً

ولقد يمتنع على الانسان ادراك الكلام او الكتابة في بعض الحالات المرضية وهو مع ذلك يرى ويستمع ولكن ما يدركه يظل كالنغمة او كالاثر الابيض على الديباجة السوداء

وكان يخيل للقانونجي الاعشى انه مغمور في لجة من النسيان كلما انشأت المغنية بصوتها الرخيم في غيبته مثالاً معبوداً . وكانت هذه الصورة تصادف في ذهنه استعداداً نفسياً كالاستعداد الذي تخلقه المشاهدة. او كالقابلية التي تحدثها رائحة اللبن في صغار الحيوانات والرضع

وغالباً ما يقنع الانسان بالارج عن رؤية الزهرة نفسها . تلك كانت حال القانونجي الاعشى نحو المغنية الحسناء . كان يحبها ولكنه لا يبصرها . والحب للعين التي لا تبصر صفحة من كتاب لا اول له . والقلب يصطنع الحب ما لم يستعن بالنظر . وكان القانونجي يركن في تذوق هذه العاطفة الخاسرة[1] الى نظر زميله العواد . رجل ذاهل عن الدنيا كأنه يبصر في سبيل سحري غير سبيل النظر المألوف . والذاهل لا يفكر في شيء . اذن فهو لا يبصر شيئاً

ما كان يدري احد اين مكان النور من ذلك المخلوق. كان عميداً لم يخطئه حكمه يوماً في فنه. لكنه بقي بجموده متخلفاً عن الدنيا . وعجيب ان يكون هذا الطبع في انسان غارق في مواطن اللهو . ولو استطاع القانونجي ان يتجسس حال زميله العواد لادرك انه عند حلمن الاستغراق

(١) الخاسرة اي الناقصة من قوله الذين يخسرون الخ

لا يقبل الاستعانة بنظره في الحكم . وحتى الحواس تعمى لا تكاد تعطينا تفسيراً حقيقياً للاشياء . والاثر الذي خلفته الايام في نظر القانونجي لا يكاد يختلف عن الاثر الذي طمس حسهُ وكتم وعيه . وربما تخيل البصير في الظلمة شيئاً لا يبعد ان يطرأ على ذهن الاعشى في النور . فقد كان بصر القانونجي بالمغنية اشبه بإحساس مستمد من زميله العواد

ولو كان من الممكن تجريد الحب من احلامه وخيالاته لأعيينا تلك العاطفة التي استأثرت بالقانونجي حباً . ولم تكن المغنية على بينة من ذلك الحب . غير ان الغصن حين يميس يخلف دائماً على الثرى بعضاً منه او من رائحته . ومقدار ما كانت عاطفة الحب تتأجج في قلب القانونجي لم تكن تجاوبها بغير العطف المجرد

كانت المغنية كأنها قد اغفلت بجهايتها هذين الفنانين . ولم تكن تجهل حالتهما من قبل

وفي سبيل الحب لا يأبى الانسان احياناً ان يكذبه ادراكه . كانت المغنية لحسنها الباهر كالماسة تأتلق في دجى . او كالزهر النضرة تهتز في آنية من الفضة . ولقد يتألف من بعض التفاوت في الخلقة جمال خاص يعجب النظر لكن القانونجي كان مجرداً حتى من هذه الصفة . هذا الى رقة حاله . ولم يكن للحب منفذ ميسور الى قلب المغنية . فان القدر الذي ابى ان يتساهل في احسان القانونجي لساعته حتى سلبه بصره شاء ان يقترن حسن المغنية بتلك التجارب القاسية التي يتكوَّن من خلاصتها سلوك المرأة وخطتها في الحياة

فلم تكن مظاهر حبه الساذج تستطيع ان تقاوم حتى مداعباتها الجدية . كانت عواطفه تخذله وقلبه يزداد خفقاناً عند سماع حديثها . ويبقى وجومه كأنه عبادة مكتومة لحسنها الممتنع

وكلما امعنت المغنية في كلامها ونكاتها حاول انكسار القانونجي ان يستند الى استغراق العواد كما يستند ازكن المنهار الى ما هو اوهى منه

وكان وقف الموسيقى يزيد في دقات قلب القانونجي . اذ يتوقع ان يصافح جمال المغنية رغبة منه لا تبصر

وتظل هذه الدمية كأنها تشرف من علٍ على هذين الحريقين

والحظوظ تأتلف ائتلاف الطيور الجبلة اما لو كان القانونجي موفقاً لاستغنت به عن اختيار جنيس من بين زبائن الحانة . كان رغم حبه كزميله المستغرق لا يستصعب ان يرى المغنية تضاحك هذا وتداعب ذاك من اصحابها ، وكانت اذا خطرت في الحانة اشبهت ضمة من الزهر يترك النسيم من خلفها عطراً

ولا يلقى الحظ الاوفى من مجالسة المغنية واقبالها سوى رجل متظرف قد ناهز الستين . ذو لحية مهذبة وخطها الشيب . واسرار لطيف اقترن بملامح بارزة

كان يختار مجلسه جانب العواد وزميله حتى اذا ابتدأ الغناء فارقهُ . لا يني ذلك الرجل يراقب

المغنية من كثب وهي تغالبه النظر الرقيق . وكان لا يترك النظر اليها الا لكي يعمن في احتساء اقداح الوسكي ولا يزال يشرب حتى يسكر ويزداد بريق عينيه . اذ ذاك كانت المغنية تهبط اليه وتأخذ في حديث طويل معه

كانت بوادر هذا الحديث تنذر بنية السيدة «ليل» في اغلاق الحانة واختيار حياة عائلية هادئة بالاشتراك مع رجل عظيم الخلق مثل ماجد بك وعلى اثر هذه الاشاعة انقطع ماجد بك فجأة عن المجيء الى الحانة

كان القانونجي لا يفارق «البار» في الهزيع الاخير من الليل الا لكي يجتمع بشرذمة من محترفي الغناء والتمثيل في مقهى وطني قائم على منحدر كالكأس المرفوعة بيد الساقية

ويبقى بين هؤلاء ساكناً مستغرقاً كأن مهنته ان يسمع . وفي الحقيقة كان حديثهم يحوي نخبة من نوادر ارباب الفنون وحوادث حياتهم البوهيمية العجيبة . وكانت حياة القانونجي نفسه كأنها عنصر اشتراك في ذلك الحديث

عاد المعلم شعبان ذات ليلة الى المقهى الصغير يحمل «القانون» فلم يكد يقع عليه نظر صاحب المقهى حتى بدا عليه الاستغراب اولاً لانه رآه يحمل الآلة الموسيقية . ولم يأت بها من قبل . ثانياً انه جاء قبل ميعاده . وعادته ان يأتي المقهى بعد منتصف الليل . وغلب الفضول صاحب المقهى فسأله — الظاهر انك « مفودس » الليلة يا معلم شعبان !

اجاب القانونجي — انا والله « ما نفودس » ابداً لو واصلت الليل بالنهار في الشغل . ولكن تأتي الرياح بما لا تشتهي السفن

— ماذا حدث ؟

قال القانونجي بلهجة يغلب عليها التأثر — لقد اغلقت الحانة

واضاف الى ذلك : ولعلك لا ترى بأساً من اقامة حفلة انس في المقهى هذه الليلة

فابتسم صاحب المقهى وقال : يسرني على الاقل ان اسمعك

قيل ان بعض الطيور البحرية اذا فقد الغذاء شق بطنه بمخلبه واستخرج امعاءه والقى بها لفراخه . ويقترن المه بوداعه في آهة أليمة يصدرها في الجو

وقد كانت توقيعات القانونجي الاعشى في تلك الليلة من قبيل تلك الآهات الاليمة يقترن فيها الوداع بالالم . ولم يترك دوراً ضربهُ في الحانة الا ردَّده . واحتبس الالم في فؤاده حتى بدا لفرط تجلده في مظهر زميله العواد . ولما تناهى الليل وخلا المكان سمع صاحب المقهى صوت وقوع الآلة الموسيقية على الارض . فحسب ان النعاس قد استولى على القانونجي . غير انهُ حين اقترب منهُ ليوقظهُ هوى الفنان الميت بين ذراعيه

عبد الحميد سالم